

وقائع حملتي باي الغرب الجزائري محمد الكبير والأمير عبد المالك العلوي على الجنوب الغربي الجزائري
خلال القرن الثامن عشر، الدواعي والنتائج

Chronicle of the Campaigns of the Bey Mohamed El Kebir and Emir Abdel Malek Alaoui on South West Algeria during the Eighteenth Century: Reasons and Consequences

الدكتور: عمر بن قايد¹

جامعة غرداية(الجزائر)، amar_gh14@yahoo.com

تاريخ النشر: 2022/01/25

تاريخ القبول: 2021/08/18

تاريخ الاستلام: 2021/05/06

الملخص: تهدف هذه الدراسة إلى البحث في جزئية هامة من تاريخ الجزائر الحديث ، وهي مسألة الحملات التي قام بها كل من باي الغرب الجزائري محمد الكبير والأمير عبد المالك ابن المولى إسماعيل العلوي، على منطقة الجنوب الغربي الجزائري، خلال القرن 18م، من خلال ما كتبه كل من ابن هطال التلمساني والأسير تيدنا، وما كتبه الرحالة المغربي أبو العباس أحمد الهشتوكي، في رحلته الحجية الثانية محاولا تبيان تلك الحملات بقراءة موضوعية مبينا أثر تلك الحملات على سكان المنطقة ورد أفعالهم.

الكلمات المفتاحية: المحلة، الجنوب الغربي الجزائري، المغرب الأقصى، الباي محمد الكبير، الأمير عبد المالك ابن السلطان مولاي اسماعيل.

Abstrac : I tried to focus the study through this article on an important part of the history of Algeria, which is the issue of the campaigns that the Bey Muhammad al-Kabir and Emir Abdel-Malik Al-Alawi carried out on the Algerian south-western region, during the eighteenth century in the writings of Ibn Hatal al-Tilimsani, Tedna and the Morroccan traveler al-Hashtucki in his second journey for pilgrimage, I will attempt to explain these campaigns with an objective reading, indicating the impact of these campaigns on the inhabitants of the region and their reactions.

Keywords: The Mahalla, Southwestern Algeria, Morocco, Bey Mohamed the Great, Prince Abdel-Malek ,Son of Sultan Moulay Ismail.

المؤلف المرسل: د. بن قايد عمر، الإيميل: amar_gh14@yahoo.com

1. مقدمة:

لقد انبهرت الكتابات الأوروبية بالمظهر الخارجي للتقلّ المخزني المغربي، حيث رسمت لنا الأشكال التي بنيت عليها الحملة أو المحلة، أثناء تنقلها في البوادي أو الأرياف، وطابع القوة والفخامة الذي توحى به تلك المحلة السلطانية، وقد ركّز المؤرخون سواء منهم المحليون أو الأجانب كثيرا على تاريخ الجزائر أو المغرب الأقصى من خلال كتب الرحلات ومذكرات الأسرى، والكتابات المحلية، وخاصة تلك التي إنصبت على دراسة المحلة أو الحملة التي يقوم بها البايات في الجزائر أو السلاطين في المغرب الأقصى، حيث شكّلت المحلة أو الحملة إحدى أهم مقومات السلطة في مناطق المغرب في الفترة الحديثة، وكانت لها وظائف متكاملة.

ولذلك جاءت هذه القراءة، جوابا على سؤال كثيرا ما يطرح حول دور الحملات أو المحلات العسكرية المغربية، اتجاه السكان في الفترة الحديثة، وخاصة منها سلطتي الأتراك العثمانيون في الجزائر أو المحزن العلوي بالمغرب الأقصى، وعليه يطرح السؤال عن ماهية ودور ونتائج تلك الحملات العسكرية على سكان البوادي والقرى، وخاصة سكان منطقة الأغواط والعمور بالجنوب الغربي الجزائري؟ وماهي أهداف وغايات كل منهما في تلك الحملات؟ وكيف كانت نتائج تلك الحملات على الواقع المحلي لتلك الجهات؟

للإشارة فإن هذا الوصف التاريخي يبين لنا نموذجا هاما للتعامل السياسي والعسكري لكل من السلطة العثمانية أو المخزن المغربي في مجال الجنوب الغربي الجزائري، وذلك في القرن 18م، وهي محاولة مني لتبيان أبعاد تلك الحملات، معتمدين على قراءة بعض النصوص التاريخية وخاصة كتب الرحلات المغربية في المسالك الجزائرية، أو مذكرات تيدينا (Thédénat) ⁽¹⁾ أو كتابة رحلة ابن هطال التلمساني، وعلى هذا الأساس جاء تصميم هذه الورقة البحثية وفق المحاور الآتية:

2-الحملة: مفهومها، تركيبتها و أليات عملها:

3-مظاهر ووقائع حملة الباي محمد الكبير على منطقة العمور والأغواط.

4-مظاهر ووقائع حملة الأمير عبد المالك ابن السلطان مولاي إسماعيل المغربي على منطقة العمور.

5-خاتمة وفيها سجلنا الملاحظات والاستنتاجات.

2. الحملة: مفهومها، تركيبتها و آليات عملها في الجزائر والمغرب الأقصى:

1.2 مفهومها:

الحملة أو المحلّة، تعني الغزوة أو المسيرة العسكرية، وتعني كذلك العمليات العسكرية التي تنظمها السلطة المركزية أو الجهوية، لإثبات سيادتها على البلاد، وقد شكّلت إحدى أهم مقومات السلطة بالإيالات المغاربية، أثناء العصر الحديث (دلندة الأرقش وآخرون، 2003، ص130)، وكانت لها عدة وظائف متكاملة، حيث أتخذت تلك المؤسسة شكل حملات تأديبية ضد المناطق البعيدة أو الجبلية، أو تلك الموجودة في بلاد السبية، فهذه الحملات مناسبة لإبراز هيبة الدولة والمخزن واستخلاص الجبايات بالقوة وتوسيع دائرة السلطة بدواخل البلاد (ناصر الدين سعيدوني، 2001، ص25)، وهو مصطلح عسكري عرف بالمغرب العربي منذ العهد الموحي والمريني والزياني والحفصي، واستمر العمل به في العهد العثماني، فهو جيش متحرك داخل البلاد عبر مجال جغرافي واجتماعي ثابت وخلال مواسم معينة (لطي يوعي، 2019، ص25).

2.2 تركيبتها:

استحدثت المحلّة في العهد العثماني 1519-1830م، كنظام داعم للسلطة واتخذت المحلّة، صفاتها وتسمياتها من العناصر المكونة لها أو طبيعة تكوينها "كمحلّة لعسكر الترك" لأنها تتكون من عناصر تركية، حيث اخذت اسمها من الأقاليم التي تجوب فيها، مثل محلّة "دار السمطان" وتسمى "المحلّة السلطانية"، بالإضافة إلى محلات القبائل مثل "محلّة الزواوة" و "محلّة المخزن" (مسلم بن عبد القادر الجزائري، 1975، ص110). ففي الجزائر، تعتبر المحلّة من أهم الهياكل العسكرية التي قامت السلطة في إيالة الجزائر باستحداثها من حيث تكوينها والعناصر المشكّلة لها ومن أبرز العناصر المشكّلة للمحلّة، نجد أغا العرب في منطقة الريف والبوادي الجزائرية، وهو قائد الفرقة المعروفة بفرقة الصبايحية، ويتبعه كل من كبار موظفي البابليك يتقدمهم، والذي وصفهم المصادر المحلية والأجنبية، ومن هؤلاء نذكر: أغا المحلّة، والباي (محمد الحبيب العيزي، 2006-2007، ص122) على رأس المحلّة، ويتبعهم خليفة الباي، ثم شخصية أغا الدائرة، وخزندار البابليك، ووكيل الحرج، وحاملي العلم أو السنجاك، والقاضي، بالإضافة إلى وجود الكثير من الموظفين وأتباع الباي (جميلة معاشي، 2007-2008، ص82)، و فرق المخزن (ناصر الدين سعيدوني، 1977، صص 81-90). وقد صوّر لنا الأسير نيدينا محلّة الباي محمد الكبير⁽²⁾، حيث وصفها بأنها كبيرة جداً، فنجد فيها متاع الباي وذلك لما يحتاجه لمدة أربعة أشهر، بحمولة 150 دابة على الأقل، ثم حمولة المحلّة من 300 إلى 400 من الجمال لحملها، وهي تحت مسؤولية الخزندار، ويوجد تحت تصرفه 60 خادما، يديرهم رئيسهم، ويقول عن الباي أن له حصان مجهزا بلجام مزين بالفضة ومطرز

بالذهب، وسرجه مصنوع من القطيفة البنفسجية ومطرز بالذهب (عميرواي احميدة، 2003، ص65)، ويسير وراءه رجال يحملون السجاق أو العلم، ومن ورائهم عازفوا الموسيقى التي تتشكل عادة من ثمانية مزامير والعديد من الطبول الكبيرة، ويسير بعدهم فرقة الفرسان التي تنتشر يمينا وشمالا، ويوصف لنا بأنه لا يسير مع الباي إلا كبار رجال البايليك وأمامه مجموعة من الغلمان بحوالي 60 شخص، وهناك غلمان مسيحيون يركبون على أحصنة جميلة عددها حوالي 12 حصان مسرّجة كلها، تسير الواحدة تلو الأخرى، ويأتي بعدهم المكلفون بالمؤونة والخيمة الصغيرة التي توضع في الطريق وتتبع الباي على بعد 20 خطوة تقريبا، ويمشي وراء الباي غلام يحمل غليون الباي، وتسير إلى جانبه فرقة مترجلة مكونة من الأتراك والكراغلة، وفي المحلة نجد كذلك المكلفين بقيادة الجمال والدواب الحاملة لخيام جميع المعسكر (عميرواي احميدة، 2003، ص66)، وتشير الكثير من الكتابات التاريخية إلى عدد المشاركين في هذه المحلات، حيث تبلغ ما بين 10 آلاف إلى 12 ألف مشارك (لطي بوعلي، 2019، ص25).

وفي المغرب الأقصى، وعلى غرار المحلات السلطانية المغاربية، فإن المحلة تخضع لنظام دقيق، ففي منطقة قلب المحلة يوجد قباب السلطان أو خليفته، و كبير المحلة، وبقية القواد ومعهم الشرفاء والمرابطين، وتتكون هذه المؤسسة السلطانية، من مخيم المخزن ومخيم العسكر، فالمخيم الأول وهو الأكبر، والذي يتكون من دائرة من حوالي 04 كيلومترات مربعة، (فريدريك وايسجربر D.F.Weisgerber، 2011، ص49-50) وتقوم في الوسط منه قبة السلطان الكبيرة والمنصوبة فوق ربوة صغيرة، وهي قبة فسيحة أشبه بسيرك متنقل تعلوها كرة ضخمة مذهبة، وتحف بها من كل جانب خيام الحريم، ويحف بهذه الدائرة مكاتب الوزراء ثم عسكر المدفعية، وخيام الرماة، ثم خيام موظفي المخزن وخدام السلطان، وخيام الطباخين وخدم المظلة وحملة الأعلام والعازفين، والعبيد، ثم تأتي عسكر الكيش وقبائل المخزن، ثم تأتي القوات النظامية، في دائرة عريضة يصل قطرها إلى نصف كيلو متر، من حول فضاء فارغ تقوم في وسطه خيام العلاف، وهو القائد العام للجيش (عبد الرحمن المودن، 1995، ص327).

والسلطان هو أمير المحلة الذي يحرص على التألق في لباسه وفي سرج فرسه، وهو ما يحيل تاريخيا إلى مشهد الخليفة عند خروجه لمواجهة أعداء الدين، وتمتاز المحلة بصرخات الأسلحة وهدير الإبل والخيول والعربات المجرورة في أجواء صاخبة ومزدحمة تعبر السلطة من خلالها عن حضورها المادي، ويوصف لنا اعداد المحلة بأنها تتألف من 12 إلى 15 ألف شخص، موزعة كالتالي، 8000 من العسكر و1500 من المسخرين، 1000 من

الرماة، و400 من الفرسان، و1000 من الراجلين، و400 من أصحاب الخيم (عبد الرحيم العطري 2013، ص 65)

لقد كان الرجال الذين يحاربون ويرافقون السلطان في المحلات ضد القبائل، ثلاثة أنواع، فقد كان هناك النظاميون والجنود الرسميون، ثم رجال المخزن، والمسخرين، الذين لا يحملون البنادق، ثم يأتي في الأخير مجندو القبائل، وكان العسكر يتكون من قبائل الكيش⁽³⁾ والوداية⁽⁴⁾ والشراقة⁽⁵⁾، وعبيد البخاري، ويضاف لهم طابور عسكر العبيد (لويس أرنو، 2002، ص 12).

بلغ عدد المشاة حوالي 2000، ومن الفرسان من 500 إلى 1000، وإلى جانب رجال المخزن بحوالي 1500، و400 من رجال المدفعية (لويس أرنو، 2002، ص ص 13-18).

3. مظاهر ووقائع حملة الباي محمد الكبير على منطقة جبل العمور والأغواط:

نتعرّض لهذه الحملة حسب روايتين ممن كانوا مرافقين لباي الغرب الجزائري محمد الكبير الكردي، فالأولى رواها أحمد ابن هطال التلمساني⁽⁶⁾، كاتب الباي ومرافقه في هذه الحملة، دون أن يفصلها بالأيام. والثانية التي أوردها الأسير تيدنا.

وكان هدف الحملة الظاهري هو إجبار أهالي تلك الجهات بالإعتراف بالسلطة العثمانية التي لم تصل إليها من قبل، وكانت السلطة العثمانية في هذه الفترة تلاحق المتصوّف الشيخ أحمد التيجاني⁽⁷⁾، بعد أن ذاع صيته في المنطقة، وكثر أتباعه وسط رعايا الأتراك في تلمسان والجنوب الوهراني عموماً، حيث إتخذ من بلدة بوسمغون مقراً لإقامته، حيث أقبل أهلها عليه (أحمد بن خالد الناصري 1906، ص 105).

وكان الباي قد طرده من تلمسان سنة 1196هـ/1781-1782م، حينما بدأ نشاطه وكثرة تنقلاته بين المشرق والمغرب، ما استوجب الحذر منه، وقد التقى الشيخ أبو العباس محمد بن ناصر الدرعي بالشيخ التجاني في قرية بوسمغون أثناء رحلته الحجية الأولى عام 1196هـ/1781م، أي في السنة نفسها التي طرد منها التيجاني من تلمسان (محمد بن عبد السلام الناصري 2013، ص 194)، وقد ذكر في هذا الشأن: "...وقدومه الآن كان من تلمسان مرغماً من بعض أمراء الترك بها..." (محمد بن عبد السلام الناصري 2013، ص 194).

وقد لمّح ابن هطال التلمساني إلى هذا الهدف غير المعلن عنه في رحلته بقوله: "أردت أن أذكر منه نبذة أخدم بها قانع المبغضين ومدوخ المارقين.." (أبو القاسم سعد الله، 1998، ص 519). وقد بيّن ابن هطال التلمساني جميع مراحل هذه الحملة والقصور والمداشير والقبائل التي تعرّضت لهذا الغزو، لكنه لم يشر إطلاقاً إلى بلدة بوسمغون⁽⁸⁾ مقر إقامة أحمد التجاني، ولا قصر الغاسول⁽⁹⁾ والأبيض⁽¹⁰⁾ وغيرها، فهل تحاشى آنذاك بشكل قد يعرض جنوده للإستنزاف، وهو في هذا الوقت يفكر في مشروع أهم ومحوري ألا وهو تحرير وهران من الاحتلال الإسباني.

وذكر ابن هطال أيضاً ما قام به الباي وجنوده من نهب للأموال والمتاع، كالأغنام والبقر والإبل والخيول والأفرشة والحبوب (القمح والشعير)، فعلى سبيل المثال، صادر الباي من أعراب جبل الملح، أكثر من 4000 رأس من الغنم، وصالحه عرب القعدة⁽¹¹⁾، ب 4000 رأس من البقر و 1000 حملة جمال من الشعير، بينما فرض على سكان الأغواط بعد قنبلة قصرهم بالمدافع، دفع 5000 ريالاً و 100 خادم، و 250 جملاً، وكذلك فعل بأهالي عين ماضي⁽¹²⁾، وتاجموت⁽¹³⁾، وأهم من هذا كله أن الباي قبل رحيله من هذه الأماكن جمع شيوخها على أن يؤذوا له الضريبة في كل سنة، وأخذ منهم العهد بالالتزام به قبل منحهم الأمان الذي طلبوه لأنفسهم وذويهم (أحمد بن هطال التلمساني، 1969، ص 47).

كان الباي يطمح إلى ربط هذه المناطق والجهات بسلطة الأتراك في الجزائر، بصفة مستمرة منذ ذلك الغزو. والثانية تعود لما ذكره تيدنا على هذه الحملة بكثير من التفاصيل كذلك، بدأ من إنطلاقها من مدينة معسكر، فقد ذكر وقائع خروج هذه المحلة من المدينة، ونظامها وعدد المرافقين للباي من عسكر و صباحية وقوات مخزن ومجندي القبائل وغيرها، حيث كانت أكثر من 16 ألف في المجموع، وقد ذكر أنه أخذ حوالي 67000 رأس من الغنم، و 5000 من الجمال و 663 حمار وبغل، و 720 بقرة وثور، وقد ذكر أنه استباح الإستيلاء على خيام الناس، وحتى سبي النساء والرجال وكانوا أكثر من 60 شخص أغلبهم من النساء، وذكر أنه عندما ينتهي من جمع غنائمه يرجع إلى منزله، ثم يعطي حصة لكل الرجال المكونين لجيشه طيلة مدة المحلة، ويقسمونها بينهم عند وصولهم (عميراوي احميدة، 2003، ص 84-85).

وقد ذكر تيدنا وكان مرافقا للباي في كثير من محلاته، أنه كان يشن الغارة على الخيام ويأخذ كل شيء حتى النساء والأطفال (عميراوي احميدة، 2003، ص 85).

جاءت دراستنا لهاتين المحلتين لتبيان دور كل منهن، فالأولى جاءت من الغرب الجزائري، والثانية جاءت من المغرب الأقصى، فالمنطقة مقفرة وقليلة الماء، ولكنها مع ذلك نقطة عبور القوافل التجارية، وتحيط بها قبائل رحلية كبيرة، وكانت هذه المناطق كنقاط تماس وتخوم بين الدولتين في ذلك العهد، تخضع إتساعها وانزواءها إلى قوة

الدولة وإمكانياتها المادية والبشرية، ولعلّ ما يهمننا هنا هو أن منطقة الجنوب الغربي الجزائري كانت من قبل ذلك تابعة لنفوذ أمراء تلمسان، وذلك بواسطة القوافل التجارية واستقطاب شيوخها ومدّهم بالهدايا، مقابل ربط منطقتهم إقتصاديا بالإمارة، ودليلنا على ذلك شيوع المعاملة بالعملة الزيانية والتبر الذهبي الزياني والتي بقيت حتى أواخر العهد العثماني (أحمد مزيان، 1988، ص 80-81).

وكانت هذه المناطق قد إنزوت على عشائرها وبقيت غير خاضعة لأي سلطة، وخاصة بعد سقوط الدولة الزيانية، وكانت محل إستقطاب من السلطة العلوية المغربية الناشئة التي شنت في عهد السلاطين الثلاثة - مؤسسي الدولة العلوية - (مولاي محمد - رشيد - إسماعيل) أكثر من عشرين غارة على مدى قرن من الزمن (ما بين 1042-1137هـ) على كل الغرب الجزائري من الشمال إلى الجنوب، انطلاقا من تلمسان على أطرافها وجنوب وهران إلى بلاد العمور وتوات.

4- مظاهر ووقائع حملة الأمير عبد المالك ابن السلطان مولاي إسماعيل المغربي على منطقة العمور:

ذكر مؤلف رحلة الملك العلام، أبو العباس أحمد الهشتوكي (ت 1127هـ / 1715م) ⁽¹⁴⁾ في رحلته إلى الحج عام 1119هـ / 1707-1708م، نقلا عن أحد سكان المنطقة، قوله: "أن الأمير عبد المالك بن السلطان مولاي إسماعيل أغار على قبيلة العمور ⁽¹⁵⁾ وغيرها من بلاد الأبيض، واستولى من يدها على 1500 من الإبل و 118000 رأس من الغنم (أحمد مزيان، 2007، ص 144).

وقد ذكر الهشتوكي كذلك، ونقل معلومات عن حركة الأمير عبد المالك عام 1121هـ / 1709-1710م لإخضاع وجباية القبائل والقصور الواقعة ما بين العمور إلى بلاد الأغواط، حيث ذكر أن الفقيه موسى بن أحمد الدهماء ⁽¹⁶⁾، وهو من فقهاء وأعيان عين ماضي، قال له، أنه شاهد خارج قرية بوسمغون قطيعا كبيرا من الغنم كان مولاي عبد المالك قد أخذه عنوة من قبائل العمور عندما أغار عليهم قبل وقت قصير (أحمد مزيان، 2007، ص 144).

وكان قد مهّد لها بتسريب مجموعة من الجواسيس والعيون، من أهالي المنطقة العارفين بآماكن تخيم القبائل الرحلية، ليجمع عنها الأخبار ومباغتتها مفترقة، فلا يترك لها فرصة الرحيل أو الإستعداد للمقاومة، حيث أن المحلّة قسّمت إلى عدة فرق لمحاصرة القبيلة الواحدة من جميع الجهات حتى لا يتمكن أفرادها من الفرار، واختار الأمير

الساعات الأولى من الفجر للهجوم على هذه القبيلة، الأمر الذي لم يترك فرصة للسكان للهروب أو تهريب مواشيهم وتخزين حبوبهم، وهو ما جعل خسائر العرش كبيرة جداً (أحمد مزيان، 2007، 144).

وقد نزل بالبادية بقرية تاويالة⁽¹⁷⁾، حيث قدمت عليه وفود عين ماضي، والأغواط وتاجموت، ومن الرجل بجبل العمور، وغيرهم فحدد لكل نصيبا يدفعه له، إما نقداً أو ما يساوي قيمة من الحلي والماشية، والزرع والسمن والصوف، فأما أهل عين ماضي فطلب منهم مائة وستون ريالاً، ولم يرحل عنهم حتى استخلصها منهم، ثم نزل بأفلو⁽¹⁸⁾، أهداهم مراكز العمور، وحاز كل ما وجده فيها من خزائن الرجل مما قيمته (ثمانين ألف)⁽¹⁹⁾، وانتقل منها إلى تاجموت ونهب ما فيها من متاع العرب، ومن تاجموت إلى الأغواط، فأعطوه أموالاً لا تحصى عددها، من الدراهم والخيل والبغال والحمير والعبيد، ونهب ما فيها من متاع العرب، ورحل إلى الأبيض ومنها أغار على الرجل المخيمين بجوراهما، واخذ لهم ما مجموعه 118000 من الغنم (يصعب تصديق هذا الرقم)، و1500 من الإبل، وفي عين ماضي كان أشد حسب قول الهشتوكي، إذ ذعرهم مرتين وأفرغ ديارهم مما كان مخزوناً فيها من المتاع كالزرع والتمر وقدر السمن وغيرها، وأجبرهم على دفع 1000 ريال وسرب من العبيد⁽²⁰⁾.

وقد استعان الأمير عبد المالك، في هذه الحركة، بمجموعة من القواد العسكريين في المخزن المغربي، من بينهم القائد عبد الله الشاوي، الذي وصفه الهشتوكي بالظالم، ولم يسلم مولاي عبد المالك من غضب الهشتوكي، الذي أبان عنه في ثنايا هذا النص، المنقول عن شيخ عين ماضي الدهماء، ومن مخبرين آخرين، الذي بلّور به موقفه الشخصي من مظالم الأمير عبد المالك وقواده في حق تلك الجهات، وخاصة منهم سكان عين ماضي، فوصف تذعيرهم للمرة الثانية بأنه عمل ظالم، وأن مولاي عبد المالك "غدر في فعله الذي عاهدهم فيه"، كما علق على ما ارتكبه محلته في قرية "أزنية"⁽²¹⁾ قرب الأغواط، من الفحش والظلم، بعدما عاهد أهلها بالأمان، على أنه "لم يأمر الناس بالمعروف ولا نهاهم عن منكر" بل أدل العباد وأفسد البلاد، وقد تعزى هذه المبالغة في جباية سكان تلك الجهات مصادرة مخزونات الأعراب، ومواشيهم للتعويض عن زكواتهم وأعشارهم غير المؤداة في السنين الماضية، إذ لم يكونوا متعودين من قبل على دفعها لأحد (أحمد بن ناصر الدرعي، 2011، ص 130).

مما نلاحظه من هذا الوصف هو ابتعاد الكاتبين رغم إقتراب المؤلفين من الحكام عن ذكر أعمال العنف التي كانت تقوم بها المحلة، فهذا ابن هطال يكتب وهو يؤيد في الباي في كل ما يقوم به تجاه الرعية بأرياف الجنوب الوهراني، باعتبار أن ذلك جزء من مهام الباي الناجح في حكمه، وبنفس الأسلوب يتحدث الكاتب عن أعمال محمد الكبير التي كانت في قمة العنف والتوسع، حيث وصل في توسعته إلى أقصى جنوب البايك، فبعد أن أشاد الكاتب

بخصال الباي أشاد بأعماله وتوسعاته على أنها مجلبة، في حين نرى أن الأسير تديننا يقدم لنا صور هذه المحلات برؤية الأجنبي، يحيث أنه قدم لنا كل ما شاهده من تصرفات للباي أثناء وجوده معه.
ونلاحظ كذلك أن الكتابات الأجنبية وخاصة الفرنسية، تبين بطش الحكام الأتراك العثمانيين في الجزائر من خلال الكثير من كتاباتهم، حيث نجد الكاتب والمؤرخ الفرنسي جورججوس (Gorguous)، الذي قام بترجمة وتحقيق كتاب أحمد بن هطال التلمساني ونقله إلى اللغة الفرنسية، ليقدم لنا الدور العثماني في صورته المشينة إتجاه الأهالي في الجزائر (M.Gorgious ,1858,p52-61).

ونجد كذلك أن من واقع هذه الحملات، فإن جباية السكان في أية جهة كانت من الجهات سواء الأتراك أو المغاربة، تعتبر رمزا أساسيا لنفاذ السلطة في المجال الذي تدور فيه المحلة، بل ومن المقومات الأساسية لاستمرار دور الجباية، ويتضح من محلة الباي سيدي محمد أنها تشبه إلى حد كبير تلك التي قام بها مولاي عبد المالك بن إسماعيل في معظم تلك الجهات نفسها قبل ذلك ب 78 عاما، وابن هطال باعتباره كاتباً ومستشاراً شخصياً للباي محمد الكبير فقد كتب وقائع هذه الحملة بأسلوب هادئ، حيث يصور لنا سلوك الباي مع السكان بأنواع صفات الرحمة والصفح، ووصاية كل شيخ قبيلة بعد الأمان، وحتى ما أدرجه في هذه الحملة من صور النهب والسلب وقتل الرقاب، فقد حاول مع ذلك أن يوحى للقارئ بأن تصرفات الباي تدخل في إطار الشرعية، وكذلك نظرة الهشتوكي كناقل لسير حملة الأمير عبد المالك، حيث يصور لنا المعاناة التي لقيها السكان من هول ما لقوه من حملة الأمير المذكور.

5-خاتمة:

عند دراستنا لمسار محلتَي كل من الباي محمد الكبير والأمير المغربي عبد المالك بن إسماعيل، في الصحراء الجزائرية أن لهما نقاط اختلاف وتشابه، وذلك حسب مسار تلك الحملات وتعاملها مع السكان وفرض الضرائب ومصادرة الأموال، حيث سجلنا الملاحظات والاستنتاجات التالية:

- اعتماد كل من الباي محمد الكبير والأمير المغربي عبد المالك على سياسة القوة والظلم والإعتداء على الأموال وإنقال كاهل السكان بالمصادرة والمباغطة والسيطرة، وفرض الأمر الواقع على السكان.
- اعتماد كل من الباي محمد الكبير والأمير المغربي عبد الملك بن إسماعيل سياسة خاصة في تعاملهم مع أهل المنطقة، والتي أبرزت اختلافا واضحا بينهما، فالباي كان تعامله حسب الصفات التي تميزت بها كل منطقة نزل بها،

فكما يظهر أسلوب الظلم والطغيان في تعامله، يظهر كذلك اللين والعفو والتسامح، وكذا إحترامه للعلماء وللنساء والأطفال والشيخوخ، بينما العكس تماما بالنسبة للأمير المغربي، الذي إعتد أسلوب المباغثة الهجوم على مضارب القبائل، وأنه كان يعطي الأمان ثم ينكث في عهده.

- بروز الإختلاف بين المحلّتين في الأسلوب المعتمد، فالباي محمد الكبير عند فرض الضرائب كان يعتمد على الحوار بينه وبين السكان، كما أنه اخذ بعين الإعتبار مستوى معيشة الأفراد وعدم قدرتهم على الدفع وأخذ نصيب تلك الضريبة للزّمة واحدة، بينما نرى العكس عند الأمير المغربي عبد المالك بن مولاي إسماعيل، الذي كان بالغ في جباية سكان تلك المناطق ومصادرة مخزوناتهم ومواشيهم للتعويض كما يقول عن أعشارهم غير المؤداة في السنين الماضية، إذ أنهم لم يكونوا متعودين من قبل على دفعها لأحد.

- مما يلاحظ أن كلا المحلّتين عمدتا إلى الوصول إلى أبعد مدى جغرافي حيث المناطق الصحراوية، وبهذا المعنى تحولت هذه المحلات إلى أهم مؤسسات رهن عليها المخزن في كلا النظامين، لبسط نفوذه على الأرض والسكان.

- تكريس ثنائية الممارسة الشرعية للعنف وتكريس تجديد الولاء والإعتراف بشرعية المخزن التركي أو المخزن المغربي.

- تؤكد الدراسات طابع المحلات الردعي التعسفي، واللجوء للعنف المفرط فقد كانت المشاهد مليئة بمظاهر الترويع والقمع في إطار تتقلهم مع المحلة، في كلا المحلّتين حيث يتزامن خروج كلا المحلّتين في الغالب مع عمليات نهاب وسلب. لأن هذا الخروج يترافق مع مظاهر الأبهة والتأنق والزينة، حيث صرخات الأسلحة وهدير الإبل و الخيول والعربات، في اجواء صاخبة .

6- الإحالات والتعليقات:

1- تيدنا هو أسير فرنسي، ولد في بوزيس لانغدوك (Uzes) من عائلة كاثوليكية ميسورة الحال، أسر في أعالي البحر المتوسط من قبل البحارة الجزائريين، ينظر: (عمير اوي احميدة، 2003 ص32).

2- الباي محمد بن عثمان بن إبراهيم الكردي أو الباي محمد الكبير، ولد الباي محمد الكبير بمليانة، التي كانت تحت قيادة والده عثمان الكردي، ولا يمكننا تحديد تاريخ ولادته بدقة، إلا أن الخزندار "تيدنا" (Thédénat) قدّر عمر الباي محمد عند أول لقاء به في قصره عام 1779م بين أربعين وخمس وأربعين سنة أي ولد بين 1734 و1739م، توفي سنة 1212 هـ / 1797م، (حجاج ميلود، مجلة المتحف الوطني أحمد زبانة، وهران، ص28)

- 3-هي من قبائل المخزن التي أسسها السلطان مولاي إسماعيل، وتتألف من قبائل مخصصة للعلويين، ينظر: (عبد اللطيف أكنوش، 1987، ص127)
- 4-وهي من القبائل المخزنية التي تم استقطابها في عهدي السلطان مولاي إسماعيل والمولى محمد بن عبد الله، ينظر: (عبد اللطيف أكنوش، 1987، ص126)
- 5-تتكون من عدة قبائل، وخاصة منها الشرقية كبنو عامر، تولى المولى الرشيد استقطابها وتنظيمها، ينظر: (عبد اللطيف أكنوش، 1987، ص125)
- 6- أحمد بن هطال التلمساني، هو أحد علماء الجزائر في أواخر العهد العثماني، شغل منصب رئيس الكتاب في بلاط الباي محمد الكبير، وكلف من قبل هذا الأخير بتحرير وقائع حملته العسكرية إلى الجنوب الجزائري، توفي في معركة فرطاسة سنة 1803م، في عهد الباي مصطفى، ينظر: (مجلة الحوار المتوسطي، الدفتر 03، الرقم: 01، ص 107-117).
- 7-مؤسس الطريقة التجانية ودفين فاس سنة 1233هـ/1814م، ينظر: (الحسن بن محمد الكوهن، 2005، ص 154-155)
- 8-بوسمغون، ذكرها العياشي، ينظر: (عبد الله بن محمد العياشي، 2006، ص 548-549).
- 9-الغاسول، هي إحدى بلديات ولاية البيض، هي إحدى بلديات ولاية البيض، مَرَّ عليها العياشي وسماها وادي الغاسول، ينظر: (عبد الله بن محمد العياشي، 2006، ص 419).
- 10-الأبيض، هي المسماة الأبيض سيدي الشيخ، كانت تعرف بواحة تانكرت سابقا، لتأخذ تسمية الأبيض بعدما حل "بها الصوفي سيدي الشيخ، ينظر: (Dumas, 1845, pp, 225-240)
- 11-هي منطقة قريبة من أفلو، ولاية الأغواط.
- 12-عين ماضي، وهي عاصمة منطقة جبال العمور، وهي إحدى الدوائر التابعة لولاية الأغواط.
- 13-تاجموت، توجد في منطقة جبال العمور، وهي تابعة إداريا لولاية الأغواط.
- 14- هو الإمام العلامة الفقيه المغربي أحمد بن محمد بن داود بن يعزى بن يوسف المنصوري الجزولي التلميذ الدرعي، الملقب: أحمزي، يكنى أباالعباس، واشتهر بالهشتوكي، ولد سنة 1057هـ، وتوفي سنة 1127هـ، ينظر: (أحمد الحضيكي، طبقات الحضيكي، 2006، ص 09)
- 15-هي منطقة تابعة لولاية الأغواط، ينظر: (مجنوب موساوي، المجلد 10، عدد 02، ص 127-145)
- 16-هو أحد شيوخ التجاجنة في قرية عين ماضي كما ذكره ناصر الدرعي، ينظر: (أحمد بن ناصر الدرعي، 2011، ص 37)
- 17-تاوالية، إحدى أقدم بلديات إقليم العمور، تابعة لدائرة بريدة.

18- عاصمة منطقة العمور، وهي تابعة لولاية الاغواط.

19- يقصد ثمانين ألف ريال.

20- ذكر أحمد بن ناصر الدرعي، وكان يرافقه الهشتوكي في نفس الرحلة أنه إلتقى: "أحمد الدهصاء بعين ماضي وهو كبير السن، وهو من كبار البلد وقد أبدى شكواه وغيظه، مما لحق سكان عين ماضي من جور مولاي عبد المالك، وقائده عبد الشاوي، فصبّره وواساه، ينظر: (أحمد بن ناصر الدرعي، 2011، ص 130).

21- هي المسماة اليوم بالإدرسية، الكائنة بولاية الجلفة.

7. قائمة المراجع:

- الحضيكي محمد، (2006)، طبقات الحضيكي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء .
- أكنوش عبد اللطيف، (1987)، تاريخ المؤسسات والوقائع الاجتماعية بالمغرب، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء.
- بن عبد القادر مسلم الجزائري، (1975)، أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- الناصري أحمد بن خالد، (1906)، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتب، الدار البيضاء.
- بن ناصر الدرعي أحمد (2011)، الرحلة الناصرية، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.
- بن هطال أحمد، (1969)، رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري 1775م، عالم الكتب، القاهرة .
- أرنو لويس، (2002)، زمن المحلات السلطانية، الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860-1912م، مطبعة إفريقيا الشرق، الدار البيضاء.
- الأرقش دلندة وآخرون (2003)، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي ميديا كوم، تونس.
- سعيدوني ناصر الدين، (2001)، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والحباية الفترة الحديثة، دار الغرب الإسلامي، لبنان.
- عميرايو احميدة، (2003)، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا)، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
- العياشي عبد الله بن محمد (2006)، الرحلة العياشية، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي .
- العطري عبد الرحيم (2013)، الرحامنة القبيلة بين المخزن والزواوية، مطبعة توب برس، الرباط.

- بوعلي لطفى(2019)،التحديث العسكري-قراءة ميكرو تاريخية في التجربة التونسية 1830-1871م،سوتيميديا للنشر والتوزيع، تونس.
- بنبلغيث السيابني،(2001)، أهمية المحلة العسكرية في تكوين الجند النظامي التونسي خلال القرن التاسع عشر، تاريخ التحصينات بالبلاد التونسية، إدارة العمل الاجتماعي والإعلام والثقافة، تونس .
- أبو القاسم سعد الله(1988)، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي ، بيروت.
- مزيان أحمد(2007)،المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي المغربي خلال القرن 19م(1845-1912م)،دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط .
- مزيان أحمد،(1988)،مساهمة في دراسة المجتمع الواحي بالجنوب الشرقي المغربي (فجيج ما بين 1845-1903)مطبعة فجر السعادة، الدار البيضاء.
- موساوي مجذوب، مقتطفات من تاريخ قبيلة العصور ببلاد جبال العصور، خلال القرنين 18 و19م، في مجلة الخلدونية، المجلد 10، عدد02.
- المودن عبد الرحمن،(1995)، البوادي المغربية قبل الإستعمار، قبائل إيناون والمخزن بين القرن 16 و19م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
- الكوهن الحسن بن محمد (2005)، طبقات الشاذلية الكبرى المسمى،جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية، دار الكتب العلمية، بيروت .
- وايسجربر فريدريك (D.F.Weisgerber)،(2011)، على عتبة المغرب الحديث، مطبعة الأمنية، الرباط.
- العزيمي محمد الحبيب(2006-2007)،ظاهرة الحكم المتجول في بلاد المغرب العربي الحديث "المحلة التونسية نموذجا"،قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 02، الجزائر .
- معاشي جميلة،(2007-2008)،الإكتشافية والمجتمع بباليك قسنطينة في نهاية العهد العثماني، ، جامعة منتوري، قسنطينة .
- حجاج ميلود، الباي محمد بن عثمان، محرر مدينة وهران"، مجلة المتحف الوطني أحمد زبانه، ص28.
- سعيدوني ناصر الدين،(1977)،"وضعية عشائر المخزن الاجتماعية والأثار التي ترتبت عليها،المجلة التاريخية المغربية، العدد 07 و08، ص ص 81-90.
- بن عتو بلبروات،اهتمام الإستشراق الفرنسي برحلة الباي محمد الكبير إلى جنوب الغرب الجزائري"، في مجلة الحوار المتوسطي، الدفتر 03، الرقم:01،ص ص 107-117.
- M.Gorgious (1858):Expédition de Mohammed El-kebir Bey de Mascara dans les contrées sud, volume03.

-Dumas ,(1845),eSahara Algerienne études Géographiques,Statistiques et Historiques sur la region au Sud des établissements Francaises,en algerie,Dubois frères,Alger.